

تماسين ملهمة في قلب الصحراء

سجية طول طول

تماسين ملحمة في قلب الصحراء

تماسين

ملحمة في قلب الصحراء

سجية طول طول

سجية طول طول

تستعرض لكم دار نسمات الأدب للنشر

الإلكتروني بعزيمة وإبداع جديد

الكتاب : رواية

المؤلفة: سجية طول طول

غلاف الكتاب: أماني مراد

موك اب الكتاب: منى وجيه

تنسيق داخلي: سها منصور

إدارة الدار: رزان محمد كليب

مع نسمات الأدب، أفكارك تنبض بالحياة!

نسمات الأدب للنشر الإلكتروني

إهداء

إلى نفسي الغالية، وإلى من كان لها
الفضل، إلى أبي الحبيب الذي أسكن قلبه
الحبّ والظل، إلى أمي نبع الحنان التي
لا تُقاس بالكلمات، إلى إخوتي الأعزاء
منبع القوة والصبر في الحياة، إلى
عائتي العزيزة، الأمان في دنيا الضباب،
إلى الأقارب، جبل الود الذي لا ينقطع
مهما طال الزمن، إلى كل بعيد وقريب
ذوي القلب الطيب واليد الممتدة، أهدي
لكم حبًّا في القلب لا يشيب ولا يذبل،
فأنتم نبض الروح وأغلى ما في الوجود،
فيا رب اجعل محبتنا تظلُّ بلا حدود.

إلى تماسين قلب الصحراء، فجر من
الماضي، إلى رملها الذهبي، وحكاياها

البعيدة التي شيدت في الأرض عرشًا،
وأسماؤها تلوح في السماء كنجومٍ بعيدة
إلى كل دربٍ مضى فيه الأجداد، إلى
صدى الخطى التي تحاكي الماضي، إلى
أزقتها التي تُخفي في جدرانها أسرارًا،
وفي هوائها شوقٌ لا يموت ولا يضيع،
إلى الذين ساروا على دربها، وجعلوا
من كل حجرٍ ونسمةٍ شعلة حياة، إلى من
سمعوا همسات الأرض وأصوات الرياح
وشربوا من نهرها العميق حبًا وأملاً
جديدًا، إلى كل من سيحمل هذا الحلم في
قلبه، وسيبحث في دروبها عن سرٍ قديم،
إلى كل من سيجد في تماسين وطنًا
ورحلة لا تنتهي في الزمن.

مقدمة

في قلب الصحراء حيث الرمال تتراقص
في الهدوء، وفي ظل النخيل تنمو
الحكايات تنبض بالأمل والدموع، هناك
في تماسين بين أزقتها الضيقة تروي
الأرض أسرارها، وتهمس الرياح
بحكاياتٍ قديمة لا تغيب ولا تذبل، كانت
المدينة يوماً مملكة للذاكرة، لكل حجرٍ
فيها قصة، ولكل زاويةٍ حكاية، تحت
سمائها العميقة حيث يلتقي الماضي
بالحاضر تولد القصص، وتزدهر
الأرواح التي تسكن المكان.

تماسين يا جوهرة الرمال، يا من تبقى
في القلب صورة لا تمحى، أنتِ الذاكرة،
والحلم الذي ينعش الروح، وأنتِ الرحلة

التي لا تنتهي مهما طالت الأزمان، هنا
حيث تتلاقى الأجيال، وحيث يشدو
الزمان بأغانيه القديمة، تبدأ الحكاية
وتفتح الأبواب على أسرار لا تُقال،
تركها الأقدار خلف ستائر الزمن تنتظر
من يكتشفها.

البداية

في قلب صحراء الجزائر حيث النخل
يغفو في الضياء، وحيث الرمل يهمس
للرياح بألف سر في الخفاء، هناك
تماسين التي نقش الزمان على جدارها
الكبرياء، وشهدت قرونًا من مجد ثم
عادت تتحني للمساء.

قصر عتيق في الدجى يقف كأنه حارس
الأسرار يحمل في أروقه همس الصوفي
وصلوات الثوار، وفي ظلال جدرانه سر
دفين لم يزل يختبئ بين الغبار كأنه
ينتظر من يجرؤ أن يفك خيوط الأسرار،
عاد يونس بن التومي بعد عشرين من
التيه والعمر، عينيه تحمل ظلال الغربة،
وصوته يكسوه الوتر، لم يدرك أن خطاه

ستوقظ صمت التاريخ والحجر، وأنه في
ليلة واحدة سيكشف ماضي المدينة
المنتظر.

الفصل الأول:

العائد إلى القصر

وقفَ يونسُ على عتبةِ الدارِ يحذِّقُ في
الجدرانِ كأنَّها تعرفُها، كأنَّها تُعيدُه إلى
الطفولةِ والمكانِ، ريحُ المساءِ تعزفُ
أنشودةَ الرملِ في النسيانِ، وصوتُ
المدينةِ يُناديه:

_"عدتَ، فهل تجرؤُ على البوحِ يا إنسانِ؟"

في الباحةِ وقفَ سالمُ الورفلي كأنَّه زمنٌ
قديمٌ، في عينيه ألفُ حكايةٍ ونظرتهُ ظلُّ
عظيمٍ.

_"لم أتوقَّع أن تعودَ يا يونسُ، أهذا حلمٌ
أم يقين؟"

أجابهُ: "لم أعُدْ وحدي بل عادَ معي
الماضي السجينِ."

قادهُ سالمُ بينَ أروقةِ القصرِ حيثُ
المخطوطاتُ نائمةٌ، وحيثُ الكتبُ العتيقةُ

تتادي باسمٍ من تركوها، وقفاً أمام
صندوقٍ خشبيٍّ قديمٍ المظهر، مُحكَمِ
الأسر، قالَ سالمٌ بصوتٍ خافتٍ:

_"هذا ما كنتَ تبحثُ عنه، فهل أنتَ
مستعدٌّ للسرِّ؟"

انحنى يونسٌ ومدَّ يديه كمن يوقظُ طيفاً
من الغياب، فتَحَ الصندوقَ فإذا
بالمخطوطةِ الصفراءِ تتبضُّ في الكتابِ،
خطٌّ عربيٌّ مزخرفٌ يلمعُ تحتَ ضوءِ
القمرِ "يومياتُ الحاجِ علي التماسيني
قبلَ سقوطِ المدينةِ في الخطرِ"، فتَحَ
الصفحاتِ الأولى، فإذا بالحبرِ يصرخُ من
الورقِ، يحدثُهُ عن ليلِ دامسٍ وخيانةٍ،
وقصصٍ تُحكى في الأفقِ.

_"في الليلة التي سبقت السقوط دفنتُ
الحقيقة في مكانٍ لن يصل إليه أحدٌ إلا
مَن يعرفُ كيفَ يسمعُ صوتَ الرمالِ
والكيانِ."_"

أحسَّ يونسُ برعشةِ الزمنِ ثمسِكُ
معصمَهُ، هل كانت هذه الكلماتُ رسالةً
أم مجردَ وهمٍ في خياله؟ رفعَ رأسَهُ إلى
القصرِ فبدأ كأنَّهُ يبتسمُ في الظلامِ كأنَّهُ
يقولُ:

_"أنتَ من سيكملُ الحكايةَ، فهل تملكُ
الشجاعةَ في الكلامِ؟"

الفصل الثاني:

سرٌّ في الريح

وقفَ يونسُ في صمتِ المساءِ
والمخطوطةُ بينَ يديهِ كأنَّها جمرٌ خفيٌّ
يحرقُ راحتيهِ، قرأَ السطورَ الأولى فإذا
بالحرفِ يهمسُ في أذنيه:

"ما كُتِبَ هنا لن يُغفَرَ لمن قرأه بعينيه.""

نظرَ إلى سالمِ الورفلي وقالَ بصوتٍ مرتعشٍ:

_"هل قرأتَ هذه الكلماتِ؟ هل أحسستَ
بالسرِّ يوشِكُ أن ينفجرَ؟"_"

أجابَه سالمٌ وهو يشيخُ بوجهه:

_"لا أحدَ يجروُ، فمن قرأها فُتِحَ له بابٌ
لا يُغلقُ."_"

في الخارجِ كانتِ الريحُ تُراقبُهُما، تُرسلُ
أنفاسَها ترسمُ على جدرانِ القصرِ
وشوشةَ ماضٍ قديمٍ، وفي السماءِ تعلَّقَ

القمرُ كسراجٍ منفي يراقبُ كيفَ ينزلُ
الليلُ من بينِ يدي المدينةِ الصمّاءِ.

قلِّبَ يونسُ صفحاتِ المخطوطةِ، فإذا بها
تغرقُ في الدماءِ، حكايةُ رجلٍ، خانٍ
إخوتهِ وسلّمَ المفتاحِ للأعداءِ، وكلماتُ
شيخٍ كانَ يعرفُ أنّ الزمانَ لن يغفرَ
الأخطاءَ، فأخفى "الحقيقة" في صدرِ
الجبلِ بعيداً عن الأضواءِ.

همسَ يونسُ:

_"الجبلُ؟ أيُّ جبلٍ هذا الذي يحملُ في
صدره السرَّ؟"

ضحكُ سالمٍ ضحكةً غامضةً وقالَ:

_"تماسينُ تعرفُ لكنّها لا تبوحُ، لن
تسلّمَ كنزها إلا لمن يُجيدُ فكَّ الشِّفراتِ."

في هذه اللحظة ارتجف ضوء القنديل في
المكتبة وسُمع صوت نَسمةٍ باردةٍ تتسلَّلُ
بين الأحجارِ وكأنَّ المدينةَ تهمسُ لهما:

_"من يبحثُ عن الحقيقةِ عليه أن يكونَ
مستعدًّا للثمنِ."

أغلقَ يونسُ المخطوطةَ، نظرَ إلى سالمٍ
ثمَّ إلى جدرانِ القصرِ وقالَ بصوتٍ ثابتٍ:

_"غداً مع شروقِ الشمسِ سنذهبُ إلى
الجبَلِ، سنرى إن كانَ الرملُ لا يزالُ
يحفظُ أسرارَهُ."

وفي الخارجِ تحتَ السماءِ الصامتةِ،
كانتِ الواحةُ تتهيأُ للرحلةِ القادمةِ، كأنَّ
الأشجارَ، والنخيلَ، والرملَ، يعرفونَ أنَّ
فجرًا جديدًا على وشكِ الولادةِ.

الفصل الثالث:

الجبيلُ الذي يَخْتَبِئُ فِيهِ السَّرُّ

قَبْلَ أَنْ يَلْمَسَ النُّورُ وَجْهَ الصَّحْرَاءِ،
وَقَبْلَ أَنْ تَفْتَحَ العَصَافِيرُ أَجْنَحَتَهَا، كَانَ
يونسُ يَقِفُ عَلَى تَخُومِ المَدِينَةِ يُحَدِّقُ فِي
الأفْقِ البَعِيدِ حَيْثُ الجِبَلُ يَنَامُ كعملاقِ
مَنَسِيٍّ يَنْتَظِرُ مَنْ يُوقِظُهُ مِنْ حُلْمِهِ
العَتِيقِ، جَاءَ سَالِمٌ يَحْمِلُ كَيْسًا صَغِيرًا
وَفِي عَيْنِيهِ قَلْقٌ قَدِيمٌ.

_"أهذا جنون أم قدر؟" سأله وهو يشدُّ
على يده.

فأجابَ يونسُ والريحُ تُلامِسُ وجنتيه
كأنها تسمعُ حديثه:

_"إن لم نذهب الآن، فلن نعرف أبداً
ماذا يريدنا الماضي أن نرى."

امتطيا جوادين وانطلقا عبر الرمال،
الطريقُ كان طويلاً، وكانت الشمسُ تُلقي

بِنِصَالِهَا الْحَارِقَةَ لَكُنَّهْمَا كَانَا يَعْرِفَانِ أَنْ
الصحراءَ تُخْفِي هداياها في عمقِ
المِحنِ، عندَ أولِ منعطفِ نحوِ الجبلِ بدتْ
آثارُ نقوشٍ قديمةٍ على الصخرِ كأنَّ أحدًا
تركَّها ليكونَ للآتينِ دليلًا، أشارَ سالمٌ
إلى رمزٍ يشبهُ عينًا واسعةً تحيطُ بها
نُجومٌ وقالَ بصوتٍ متردِّدٍ:

_" هذا الرَّمزُ رأيُّهُ مِنْ قَبْلِ لَكِنْ لَا أَحَدٌ
يعرفُ قصتهُ. "

لَمْ يَكُنْ لَدَى يُونُسَ وَقْتٌ لِلأَسئَلَةِ، كَانَ
شيءٌ ما في داخلِهِ يهْمِسُ:

_" تابع، لا تتوقَّفِ الآن. "

تَسَلَّقَا الجبلَ بِخَطَوَاتٍ مُرَهَقَةٍ حَيْثُ
الحجارةُ كانتْ تُحَدِّقُ فِيهِمَا وَكَأَنَّهَا تَقُولُ:

_" لِمَاذَا أَتَيْتُمَا؟ ماذا تَبْحَثَانِ؟ "

عِنْدَ قَمَّةِ الْجَبَلِ وَقَفَا أَمَامَ مَدْخَلِ كَهْفٍ
ضَيِّقٍ، أَمَامَهُ بَقَايَا أَعْمَدَةٍ مَكْسُورَةٍ،
وَشظَايَا أَوَانٍ فَخَّارِيَّةٍ، قَالَ يُونُسُ:

_"هنا تحت هذه الأرض مدفون السرُّ." _

لكنَّ سالمًا ابتلع ريقه وقال بصوتٍ خافتٍ:

_"أتعلم؟ هناك أسطورة تقول إنَّ هذا
المكان ملعونٌ، وإنَّ من يدخله لا يخرجُ
كما كان." _

نظرَ يونسُ إلى الداخلِ، كانتِ العتمةُ
تبتلعُ الصمتَ كأنَّها عينٌ لا قاعَ لها،
ومعَ أوَّلِ خطوةٍ داخله، همستِ الرِّيحُ:

_"لقد وصلت، فهل أنت مُستعدٌّ للحقيقة؟" _

الفصل الرابع:

الحُجُبُ التي تُخفي الحقيقة

دخَلَ يونسُ إلى الكهفِ، والنورُ خلفه
كانَ يَضْمَحِلُّ كشمعةٍ تحتَ الريحِ، كلُّ
خطوةٍ كانت تُحدثُ صدًى كأنَّ الأرضَ
تهمسُ بأقدامه، سالمٌ تردَّدَ للحظةٍ ثمَّ
لحقَ بهِ وقلبه يَخفقُ كطائرٍ حبيسٍ.

في الداخلِ كانتِ الجدرانُ مغطاةً بنقوشٍ
لم يرياً مثلها من قبلُ، أشكالٌ لرجالٍ
يرفعونَ أيديهم نحوَ السماءِ، دوائرُ
تتشابكُ كأنَّها خُطوطُ قَدَرٍ، وكتاباتٌ
محفورةٌ بخطِّ لا يشبهُ أيَّ لغةٍ يعرفانها؛
قالَ سالمٌ وهو يُمرِّرُ يدهُ على إحدى
العباراتِ:

"هذه ليست أمازيغيةً ولا عربيَّةً، إنَّها
لغةٌ من عاشوا هنا قبلَ آلافِ السنينِ."

أَمَّا يُونُسُ فَكَانَ يُحَدِّقُ فِي نَقْشِ وَسْطِ
الْجِدَارِ، رَجُلٌ وَقَفَ يُمَسِّكُ بَكِتَابٍ وَيُشِيرُ
إِلَى بَابٍ مَخْفِيٍّ، اقْتَرَبَ يُونُسُ وَمَدَّ يَدَهُ
نَحْوَ النَّقْشِ، وَفَجْأَةً اهْتَزَّتِ الْأَرْضُ
تَحْتَهُمَا كَأَنَّ الْكَهْفَ اسْتَيْقَظَ، تَرَجَّعَ سَالِمٌ
وَهُوَ يَشْهَقُ:

_"ماذا فعلت؟!!"

لَكِنَّ يُونُسَ لَمْ يُجِبْ بَلْ نَظَرَ نَحْوَ الْأَرْضِ
حَيْثُ انْشَقَّتِ الصَّخُورُ كَاشِفَةً عَنِ دَرَجِ
حَجْرِيٍّ يَهْبِطُ فِي الظَّلَامِ، كَانَ هُنَاكَ شَيْءٌ
فِي الْأَعْمَاقِ، شَيْءٌ نَادَاهُمَا كَأَنَّهُ ظَلَّ نَائِمٌ
مِنذُ قُرُونٍ يَنْتَظِرُ مَنْ يَوْقِظُهُ، قَالَ يُونُسُ
بصوتٍ مغموسٍ بالرهبة:

_"علينا أن ننزل."

لَكِنَّ سَالِمًا تَرَدَّدَ ثُمَّ قَالَ:

_"يُقَالُ إِنَّ بَعْضَ الْأَبْوَابِ إِذَا فُتِحَتْ لَا تُغْلَقُ أَبَدًا."

رغم ذلك نزلنا خطوةً خطوةً والهواءُ
يَزْدَادُ بُرُودَةً، كَانَتْ الْجِدْرَانُ فِي الْأَسْفَلِ
تَحْمَلُ رَمُوزًا أَكْثَرَ وَضُوحًا، نَجُومٌ، عِيُونٌ
مَفْتُوحَةٌ، وَسُفُنٌ فِي بَحْرِ مِنَ الرَّمَالِ،
وَكَأَنَّهَا رِسَالَةٌ مِنْ حَضَارَةٍ غَارِقَةٍ فِي
النَّسْيَانِ، عِنْدَ نَهَايَةِ الدَّرَجِ كَانَ هُنَاكَ بَابٌ
حَجَرِيٌّ نُحِتَتْ عَلَيْهِ جُمْلَةٌ وَاحِدَةٌ بَلِغَةٌ
يَعْرِفُهَا يُونُسُ جَيِّدًا:

_"لَيْسَ كُلُّ مَنْ يَقْرَأُ يَفْهَمُ، وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ
يَفْهَمُ يَنْجُو."

وَضَعَّ يُونُسُ يَدَهُ عَلَى الْبَابِ وَشَعَرَ
بِحَرَارَةٍ خَفِيفَةٍ تَحْتَ أَصَابِعِهِ، كَانَتْ
الْحِجَارَةُ تَبْضُ كَأَنَّهَا كَائِنٌ حَيٌّ ثُمَّ بَطِئَ

بدأ البابُ يفتحُ وكأنَّ الصحراءَ ذاتها
تحبسُ أنفاسها انتظارًا للحظةِ الحقيقةِ.

نسمات الادب

للنشر الإلكتروني

الفصل الخامس:

الحيُّ الذي يُخفي ظلَّهُ

حينَ انفتحَ البابُ الحجريُّ، لم يكنْ خلفه
سوى ممرٍ طويلٍ، ممرٌ امتدَّ كأنه نهرٌ
من الظلام لا يرى نهايته إلا من يجرؤُ
على السيرِ فيه، تقدّمَ يونسُ، وسالمٌ
خلفه، والنورُ الخافتُ من المشاعلِ
يرتجفُ فوقَ الجدرانِ لكنَّ رائحةً غريبةً
بدأتْ تتسلَّلُ إليهما، رائحةُ ماءٍ قديمٍ،
وترابٍ لم يمَسَّ منذَ قرونٍ.

عندَ نهايةِ الممرِ وجدا قاعةً واسعةً
وسطها بركةُ ماءٍ فوقها عائمٌ لوحٌ
خشبيٌّ، وفي زاويتها صندوقٌ مُزخرفٌ
بنقوشٍ لم يرَ مثلها يونسُ من قبلُ،
انحنى ليلمسه لكنَّ سالمًا أمسكَ يدهُ فجاءَ
وقال:

_"توقّف، هناك أماكن في تماسين لا
يُلمَسُ فيها شيءٌ قبل أن يؤذَنَ لكِ."

تذكَرَ يونسُ كلامَ والدهِ قديمًا عن الأحياءِ
القديمةِ في تماسين، عن حيِّ المنارِ
(القُبَّةِ) حيثُ كانتِ الأسرارُ تُروى همسًا،
حيثُ الجدرانُ تعرفُ أسماءَ الرجالِ
الذينَ عبروا، والأبوابُ القديمةُ تحفظُ
قصصَ مَنْ عادوا، ومَنْ لمْ يعودوا.

قالَ سالمٌ وهو ينظُرُ إلى الحيطانِ
المغطاةِ بالغبارِ:

_"أتعرفُ أنَّ في حيِّ المنارِ مقبرةً
قديمةً، يُقالُ إنَّها تخفي ممرًّا سرِّيًّا؟"

نظرَ إليه يونسُ باستغرابٍ وسألهُ:

_"أينَ يقعُ هذا الممرُّ؟"

فأجابه سالمٌ بصوتٍ خافتٍ:

_"تحتهُ، تحتَ المسجدِ القديمِ حيثُ كانَ
الشيوخُ يجتمعونَ، وحيثُ كانَ بعضُ
الأسرارِ تُدفنُ قبلَ أنْ يُعثرَ عليها."_"

كانَ يونسُ يعرفُ حيَّ المنارِ جيِّداً، كانتِ
القِبَّةُ هناكَ، قِبَّةٌ بيضاءُ يحيطُ بها نخيلٌ
عالٍ، وفي ليالي الشتاءِ كانتِ الريحُ
تدورُ حولها كأنَّها تُنادي مَنْ يفهمُ لغةَ
المكانِ، تساءلَ يونسُ في نفسه إنَّ كانتِ
الأجوبةُ في هذا الكهفِ أم أنَّ عليه أنْ
يَعودَ إلى تماسينَ، إلى القِبَّةِ، إلى الممرِّ
المدفونِ هناكَ حيثُ الصمتُ أبلغُ من كلِّ
الكلماتِ، وحيثُ الحقيقةُ قد لا تكونُ كما
توقَّعها لكنَّ أولاً عليه أنْ يفتحَ الصندوقَ
أنْ يرى ما يختبئُ داخلهُ، أنْ يعرفَ إنَّ

كَانَ الْمَاضِي سَيَسْمَحُ لَهُ بِالْفَهْمِ أَمْ أَنَّ
الظِّلَّ الَّذِي يَسْكُنُ تَمَاسِينَ سَيُغْلِقُ الْأَبْوَابَ
قَبْلَ أَنْ تُكشَفَ الْحَقِيقَةُ.

الفصل السادس:

حيّ سيدي عامر "الماضي الذي

لا يموت"

بينما كان يونسُ وسالمٌ يقفانِ في قاعةٍ عميقةٍ تحت الأرضِ، كانت أفكارُ يونسِ تتسللُ إلى أحياءِ تماسينِ القديمة، كان يتذكرُ حي سيدي عامر، ذلك الحيُّ الذي شهدَ الكثيرَ من الأحداثِ العظيمة، حيُّ يكتنفهُ الصمتُ، وتُغطيه الرمالُ التي لا تملُّ من اقتحامه لكنَّ سيدي عامر كان يحفظُ في جنباته أسرارًا قديمةً، أسرارًا تكتبُ تاريخًا لا يزالُ حيًّا في قلوبِ أهله، قالَ سالمٌ بصوتٍ هاديٍّ بينما يمرُّ يدهُ فوقَ النقوشِ:

_"هل تذكرُ سيدي عامر؟ مكانٌ غريبٌ، لا يعرفهُ كثيرون لكنَّ من عاشَ فيه لا يمكنُهُ أن ينساهُ، إنه المكانُ الذي يبدأُ فيه التاريخُ ولا ينتهي."

تذكرَ يونسُ حينَ كانَ صغيرًا، كيفَ كانت
أزقةُ سيدي عامرٍ تضجُّ بالأصواتِ حيثُ
يلتقي أهله مع الزوارِ في ساحةٍ كبيرة
تُحيطُ بها المنازلُ البيضاءُ التي تحملُ
رائحةَ الزهورِ الصحراويةِ، وتتوسطُها
مئذنةٌ عاليةٌ ينطلقُ منها الأذانُ في كلِّ
صلاةٍ كأنَّ صدى الصوتِ يمتدُّ عبرَ
الرياحِ ليذكرَ الجميعَ بتاريخٍ لا يمحي.

_"في سيدي عامرٍ كانت قصصٌ تُروى
عن جدودٍ رحلوا لكنَّهم تركوا آثارًا لم
تتقضِ"

قالَ يونسُ وهو يفكرُ في الذكرياتِ التي
تتراكمُ:

_"هل يعقلُ أن يكونَ للحيِّ هذا تأثيرٌ في
ما نبحثُ عنه؟"

كانت الجدرانُ القديمةُ لـ سيدي عامر
تخفي كثيرًا من الأسرارِ مثلما كانت
أحياءُ المدينةِ الأخرى تعجُّ بالحكاياتِ
التي كانت تُختتمُ دائمًا بجملةٍ واحدةٍ:

_"الماضي لا يموت، هو يُسكنُ في
الأماكنِ التي نستبعدُها."

في سيدي عامر حيثُ تتداخلُ الأزقةُ
الضيقةُ معَ الأزمنةِ الغابرةِ، كان لبعضِ
الأزواجِ حكاياتٍ منسيةٍ، قصصٌ عن
الحبِّ والألمِ، وعن العائلاتِ التي دفعتْ
ثمنَ جهلِ الآخرين، وهناكُ بينَ شوارعِ
الحيِّ كانتِ الأساطيرُ تعيشُ في القلوبِ
كما في الكتبِ القديمةِ لتُعطي تماسينَ
طابعًا خاصًا لا مثيلَ لها، قال سالمٌ وهو
يلتفتُ إلى يونس:

_"إذا أردت معرفة الحقيقة، يجب أن تزور سيدي عامر، فالحيُّ رغم صمته يُخبئ ما لا يمكن أن يرويه أحد."

يبدو أن لكلِّ حيٍّ في تماسين قصته الخاصة لكنَّ سيدي عامر كان يحملُ ماضٍ لم يكشفهُ الزمانُ بعدُ، كان يُخبئُ في قلبه مفاتيحَ كلِّ أسرارِ المدينة، وكان على يونس أن يذهبَ إلى هناك ليجد الصلةَ التي تربطُهُ بكلِّ ما يحدثُ الآن.

الفصل السابع:

حي البحور "حيث الماء

يصبح سرًا"

بينما كانت الشمسُ تغربُ على الأفق،
ويكسو الضوءُ الذهبيُّ الرمال، بدأ
يونسُ يشعرُ بمرارةِ الأسئلة التي تلتفتُ
حولَ قلبه، ورغمَ أنه سعى في عمقِ
الكهفِ، وجدَّف في أمواجِ الذاكرة، إلا أنَّ
الحيَّ الذي كان يفكرُ فيه أكثرَ من غيره
هو حي البحور؛ حي البحور كان يشتهرُ
بأزقته الهادئة والمُظَلَّلة بأشجارِ النخيل،
وكان لعيونِ الماءِ والبركِ الصغيرةِ
الساكنة في الطرقاتِ، طابعٌ سحريٌّ
خاص، يُقالُ إنَّ الماءَ في هذا الحيِّ ليس
عاديًّا بل يحملُ بينَ موجاته أسرارًا
عميقةً عن أزمنةٍ غابرةٍ، وعن أسلافٍ
أودعوا هناك شواهدَ على تاريخِ ضائع،
قالَ سالمٌ بنبرةٍ مشحونةٍ بالغموضِ:

_"إذا أردت أن تعرف الحقيقة يجب أن تذهب إلى بحيرة تماسين، فهي البئر التي لا تجف أبداً، ولا تبوح بمكنوناتها إلا لأصحاب السرّ."

نظرَ يونسُ إلى سالمٍ وقالَ:

_"لكن ما الذي يجعلها مختلفةً عن غيرها من البحيرات؟"

أجابَ سالمٌ وقد ظهرتِ التجاعيدُ في وجهه:

_"في بحيرة تماسين، ليست المياه التي تلمسها فقط بل هناك طاقةٌ تسكنُ في عمقها، طاقةٌ تتسربُ إلى النفسِ تجعلك ترى ما وراء الحواجز، تُريك الحقيقة كما لم ترها من قبل، أو ربما تُضلك عن طريقك."

المكان الذي يُسمَّى بحيرة تماسين كان
جَمِيعُ سكانِ المدينةِ يُحاطونَ بهالةٍ من
القداسةِ، كانوا يعتقدونَ أنه مرتبطٌ بقوةٍ
خارقةٍ تكثفُ المكانَ لكنَّ يونسَ كان
يعتقدُ أنَّ السرَّ الذي يدورُ حولَ البحيرةِ
أكبرُ من مجرد أسطورةٍ، ورغمَ ذلكَ كان
يعرفُ أنه سيكونُ عليه أن يتوجهَ إليها
ليجدَ الجوابَ الذي يملأُ فراغَ ألمه.

رحلَ يونسُ وسالمٌ معاً إلى حي البحور،
كانتِ الأزقةُ تضيقُ شيئاً فشيئاً، وكلما
اقتربوا من البحيرة، أصبحَ الهواءُ أكثرَ
رطوبةً وكانَّ المياهَ تحتفظُ بأسرارها في
عمقها ولا تودُّ أن تُفصحَ عنها بسهولة.

عندما وصلا إلى البحيرة كان المنظرُ
أكثرَ من رائعٍ؛ المياهُ الزرقاءُ كانتِ

تنعكسُ فيها السماءُ بألوانٍ متدرجةٍ من
الأزرقِ إلى الفضيِّ كأنها مرآةٌ لا تُظهرُ
سوى المجهول، وهنالك على ضفافها
كان الجهدُ لا يُجدي إذ أنَّ "سرَّ البحيرة"
لا يُكتشفُ بسهولة، قال سالمٌ وهو ينظرُ
إلى يونسٍ بنظرةٍ تأمليةٍ:

_"كلُّ من يقتربُ من هنا يشعرُ أنه في
مفترقِ طرقٍ، إما أن يكونَ على دربِ
الحقيقةِ أو يضلَّ عن طريقه، هل أنت
مستعدٌّ؟"

ردَّ يونسٌ وهو يبتسم برغم الرياح التي
تعصفُ به:

_"لا يمكنني أن أهربَ من الأسئلةِ بعدَ الآن."
واقترَبَ يونسٌ من حافةِ البحيرةِ غارقاً
في أفكاره، أغمضَ عينيه للحظةِ، وفجأةً

شعرَ بشيءٍ غريبٍ يحدثُ في المياه كما
لو أنّ البحيرة كانت تفتحُ له أبوابَ
الماضي لكنَّه تراجعَ لحظةً أن شعرَ بيدِ
باردةٍ تلامسُ كَفَّه، ليلتفتَ ويجدُ سالمًا
يتأملُهُ وهو يبتسمُ بمرارةٍ:

_"لقد بدأتُ الرحلة يا يونس، الرحلة
التي لا مفرَّ منها."

الفصل الثامن:

تماسين "جوهرة تقرت في الجزائر"

تماسين تلك الجوهرة الصغيرة التي تلمع بين أحضان الصحراء الكبرى، هي مدينة لا يشبهها شيء في العالم، أرضها تختزن تاريخًا عميقًا، وجمالًا غير عاديٍّ ولكنها أيضًا تحمل في أزقتها أسرارًا دفينَةً تحتاجُ إلى من يكشفها، تقعُ تماسين في قلب تقرت جنوب الجزائر حيث يمتزجُ جمالُ الطبيعةِ برائحةِ التراث، هنا في المدينة التي يختلط فيها الماضي بالحاضر، تتلاقى طرقُ الحياة القديمة مع نسمات التحديث لتصبح تماسين رمزًا للفخر، وحلقةً وصلٍ بين ماضٍ لم يُنسَ وحاضرٍ يسعى للاستمرار لظالما اعتُبرت تماسين مركزًا تجاريًا مهمًا في العصور الوسطى، كانت ملتقى

القوافل التي تمرُّ عبر الصحراء لكنَّ
جمالها لم يكن في أسواقها فحسب بل
في جمال طبيعتها التي لا توصف،
فالنخيلُ يحيطُ بالمدينة من كل جانب
وكأنَّها تحيطُ بتاجِ أخضرٍ، والرمالُ
الذهبيةُ التي تلامسُ السماء، تُعطي
للمدينة سحرًا لا يُنسى.

قال سالمٌ وهو يُشيرُ إلى الأفقِ البعيدِ:

_"لقد كانت تماسين موطنًا للكثير من
الأنبياء والشخصيات التاريخية العظيمة،
هنا في هذه الأرضِ تحققت معجزات،
ونشأت حضارات، تمسكُ تماسين
بعراقتها رغم كل ما مرَّ بها من أحداثٍ."

سأله يونسٌ وهو ينظرُ إلى الأفقِ بتأملٍ:

_"لكنَّ تاريخَ تماسين لا يتوقفُ عندَ"

الماضي، أليس كذلك؟"

أجابَ سالمٌ مبتسمًا:

_"لا، تاريخُ تماسين مستمرُّ في كلِّ"

لحظةٍ ولا يتوقفُ أبدًا، ففي كلِّ زاويةٍ،

في كلِّ حارةٍ، هناك قصةٌ جديدةٌ، وحكايةٌ

لم تُرو بعد."

وقفتُ الشمسُ تودعُ السماءَ بينما كان

يونسُ يعبرُ أحدَ شوارعِ تماسين القديمة

حيثُ كان الضوءُ الخافتُ ينثرُ خيوطه

على الجدرانِ القديمةِ للمنازل، يبدو أنَّ

هذا المكانُ كان يخبئُ أكثرَ مما يظهرُ،

وكلِّ زاويةٍ في المدينة كانت تُناديه

تُحاولُ أن تضعه في المسارِ الذي يجبُ

أن يسلكه.

مرت الأيام واكتشفَ يونسُ المزيدَ عن
المدينة التي يعشقها، وجد نفسه مغرماً
بتاريخ تماسين وبالروح التي تتبعهُ من
بين أزقتها، وكان لا يستطيعُ أن يتجاهلَ
الحقيقة التي تكشفُ نفسها شيئاً فشيئاً،
أنَّ هذه المدينة العتيقة هي أكثر من
مجرد مدينة، هي روحٌ حيةٌ تربطُ بين
الماضي والحاضر، وتحفظُ في جوانبها
ما لا يستطيعُ الزمنُ محوَه.

اليوم تماسين ليست مجرد ذكرى في
قلوب أهلها بل هي جوهرةٌ حيةٌ تتألقُ
في قلب الجزائر، وفي كل زيارةٍ لها تجدُ
أنَّ روحَ المكانِ تتجددُ، وأنَّ الأسرارَ
التي تحتويها لا زالت تنتظرُ من يكشفها.

قال سالمٌ وهو يشيرُ إلى قلب تماسين:

_"هنا في قلب المدينة تختبئ حقيقة لم
تكشفها بعدُ الأجيالُ التي سبقتنا، تماسين
هي بوابةٌ إلى ماضٍ عميقٍ، ومن خلاله
يمكننا أن نكتشف المستقبلِ." _

وبينما كان يونسُ يتأملُ الأفقَ الذي
يغمرُه ضوءُ المغيبِ، شعرَ بشيءٍ غريبٍ
كأنَّ تماسينَ نفسها كانت تتنفسُ في قلبه
وتهمسُ له بأنَّ الطريقَ إلى اكتشافِ
الحقيقةِ لم ينتهِ بعدُ، وأنَّ أسرارَ هذه
المدينة العتيقة لا تزالُ تنتظرُ من يتجرأُ
على كشفها.

الفصل التاسع:

أسرار تماسين "المدينة التي

لا تنام"

في زوايا تماسين حيث تختلط العراقة
بالحدائث، بدأ يونس يشعُر بشيءٍ غريبٍ
يتسللُ إلى نفسه، فكلمها تعمقَ في
الشوارع الضيقة، وكلما رتَّبَ خيوطَ
ماضي المدينة في ذهنه، كان يكتشفُ أنَّ
المدينة ليست فقط مكانًا جغرافيًا بل هي
كائنٌ حيٌّ يحملُ أسرارًا مخفية، قال سالمٌ
وهو يقودُ يونسَ في أحدِ الأزقةِ الهادئةِ:

_"تتخيّلُ أن تماسينَ مدينةٌ صغيرةٌ لا
تحملُ الكثير من الأسرار لكنَّ الحقيقةَ أنَّ
المدينةَ كلها لغزٌ، وكل حجرٍ في أرضها
يحملُ قصةً لا نعرفُها."

واصلَ يونسُ التفكيرَ في كلماتِ سالمٍ
وهو ينظرُ إلى المحلاتِ الصغيرةِ التي
تحيطُ بالأزقة، إلى الشرفاتِ المزخرفةِ

التي تعكس ملامح من ماضي المدينة،
وكلما نظر إلى الجدران المتآكلة كان
يعتقد أن المدينة تخبئ شيئاً أكبر، أوقف
يونس قدمه فجأةً عند بابٍ قديمٍ في
إحدى الزوايا، كان الباب مصنوعاً من
خشبٍ أسودٍ وعليه نقوشٌ قديمةٌ تحكي
عن أزمانٍ غابرةٍ، قال سالمٌ بصوتٍ
خافتٍ:

_"هذا هو الباب الذي يقود إلى أحد أكبر
أسرار تماسين."

فتح سالمُ البابَ ببطءٍ ليكشفَ عن غرفةٍ
صغيرةٍ مظلمةٍ تحسب الأرض، داخلَ
الغرفةِ كانت هناك رفوفٌ تحملُ
مخطوطاتٍ قديمةٍ بعضها محطّمٌ وبعضها
محفوظٌ بعنايةٍ.

قال سالم وهو يشير إلى أحد المخطوطات:

_"هذه المخطوطة تعود إلى القرون الوسطى وتحتوي على تاريخ لا يعرفه إلا القليلون لكن من يقرأها بعناية سيجد مفاتيح أسرارٍ قد تغيّر مجرى تاريخ تماسين."

قرأ يونس بصمتٍ الكلمات القديمة التي كانت مكتوبةً بخطٍ عربيٍّ فنيٍّ.

_"في عامٍ من أعوام الحكم العثماني، كان هناك اتفاقٌ سريٌّ بين حكام تماسين وبين قوافلٍ تجاريةٍ تبحرُ عبر الصحراء، هذا الاتفاق كان يحتوي على تفاصيلٍ تتعلقُ بالذهبِ المفقودِ والممراتِ السريّةِ التي تُوصلُ إلى منابعٍ لا تُكتشفُ إلا بواسطة مختارين."

شعرَ يونسُ بالقشعريرةِ تسري في
جسده، كان ما قرأه يحملُ في طياته
وعداً بالكشف عن شيءٍ ضخمٍ، شيءٍ
يلامسُ واقعَ تماسينَ نفسه.

_"هل تعني أن هناك خزائن مخفية في
المدينة؟ أو ربما أسراراً حول تجارة
قديمة دفنتها الرمال؟" سألَ يونسُ وهو
يلتفتُ إلى سالمٍ.

أجابَ سالمٌ بنبرةٍ هادئةٍ:

_"نعم إن تماسين كانت ولا تزالُ خزانةً
أسرارٍ، وكلما اقتربنا منها كلما اكتشفنا
أكثر، ما قرأته هو مجرد بداية لكن
الحقيقة في الأعماق، في الأماكن التي لم
يجرؤ أحدٌ على الدخول إليها."

وفي تلك اللحظة شعرَ يونسُ بوجودِ
شيءٍ غريبٍ يتفاعلُ مع المكان كما لو
أنَّ الغرفةَ نفسها كانت تتنفسُ أو تُراقبُ
ما يحدثُ فيها، قالَ يونسُ:

_"أعتقد أنني بحاجةٍ إلى العودةِ إلى
المكان الذي بدأ فيه كل شيءٍ، بحيرة
تماسين."_"

كان كل شيءٍ في تماسين يحومُ حول
البحيرة التي كانت حاملةً لأسرارٍ لا تُعدُّ
ولا تحصى، ذهبَ يونسُ وسالَمَ إلى
البحيرة مرةً أخرى لكن هذه المرة كان
لديهما إحساسٌ مختلفٌ، كان يونسُ
يشعرُ بأنَّه على وشكٍ اكتشافِ شيءٍ
عظيمٍ، شيئاً غيرَ تقليديٍّ، كان الموجُ

يحملُ رسالةً، وإن كانت تماسين لم
تفضح كلَّ أسرارها بعد.

نسمات الادب

نشر الإلكتروني

الفصل العاشر:

بحيرة تماسين "حيث يتقاطع

الماضي والحاضر"

في تلك الليلة كانت الرياح تهبُّ بشدةٍ
في أنحاء تماسين وكانَّ المدينة نفسها
كانت تستشعرُ اقترابَ شيءٍ عظيمٍ، كانت
البحيرة في تلك اللحظة أكثرَ هدوءًا من
المعتاد كما لو أنها كانت تنتظرُ
قدومهما، يونسُ وسالمُ يقفان على حافة
البحيرة يتأملان المياه الصافية التي
تعكسُ سماءَ الليل، وفي أعماقهما كان
كل شيءٍ ينبضُ بالحياة وكانَّ اللحظة
كانت بدايةً لرحلةٍ جديدةٍ، قالَ سالمُ
بصوتٍ منخفضٍ وهو يراقبُ سطحَ
البحيرة:

_"الأسطورة تقول إنَّ بحيرة تماسين
ليست مجرد ماءٍ إنها مرآةٌ تعكسُ أرواحَ
الماضي وتُظهرُ كلَّ ما دفنته الرمال."_"

وقفَ يونسُ متأملاً وقال:

_"لكنَّ ما الذي يجعلُ هذه البحيرة
مختلفةً عن غيرها من البحيرات؟ لماذا
يشعرُ كل من يقتربُ منها بشيءٍ غير
عادي؟"

أجابَ سالمٌ وقد ظهرت على وجهه بعض
الجدية:

_"عندما تغمسُ قدميك في المياه هنا، لا
ترى فقط انعكاسًا لوجهك بل ترى
انعكاسًا للأزمنة، لذكرياتٍ دفينية،
ولأسرارٍ قديمةٍ منسية، البحيرة تخفي
شيئًا مهمًا، شيئًا قد يغير مجرى
تاريخنا."

اقترب يونسُ ببطءٍ من المياه شعرَ
بشيءٍ غريبٍ يتسللُ إلى أعماق قلبه كأنَّ

المكان يُناديه يهمس له باسمٍ قد نسيه
 منذ زمنٍ بعيدٍ، وفي اللحظة التي غمسَ
 فيها أصبعه في الماء شعرَ بحركةٍ غير
 عاديةٍ في الأعماق، وكان سطح البحيرة
 قد تلاشى فجأةً وكأنَّه فتحَ بابًا إلى عالمٍ
 آخر، غمره شعورٌ غير مألوف، شعورٌ
 بالتشوّت والارتباك وكأنَّه سافر عبر
 الزمن، رأى أمامه مشهدَ غريبةً، صورًا
 غير واضحةٍ كأنَّها ذكرياتٌ مهشمةٌ من
 الماضي، في تلك اللحظة ظهرت له
 صورةٌ غامضةٌ لرجلٍ مسنٍّ يرتدي لباسًا
 قديمًا، وكان يهمسُ له بكلماتٍ غير
 مفهومةٍ ثم اختفى فجأةً، انسحبَ يونسُ
 بسرعةٍ من الماء يلهثٌ وهو ينظرُ
 حوله.

قال سالم وهو يراقبه:

_"لقد رأيت ما كان يجب أن تراه،
البحيرة لا تعطي أسرارها بسهولة لكنها
كشفت لك جزءًا من الحقيقة."

سأله يونس وقد بدأ يشعر بضغط في صدره:

_"من كان ذلك الرجل؟ وما الذي كان
يهمس لي؟"

أجاب سالم وهو ينظر إلى البحيرة بنظرة
عميقة:

_"ذلك الرجل هو جزء من تاريخ
المدينة، من أسرة قديمة حكمت تماسين
في العصور الوسطى، وكان يعرف سرَّ
الذهب المفقود ولكن أسرتهم اختفت
فجأة واختفت معها الكثير من
التفاصيل."

واصل يونسُ التفكيرَ في هذه الكلمات،
وكان يشعرُ أنّ ما اكتشفه الآن كان
مجرد بدايةٍ لما هو أعظم.

_"الذهب المفقود هذا ما كنتُ أبحث عنه
طوال هذا الوقت!"

لكنّ الحقيقة كانت أكثر تعقيداً مما تصوّر
يونسُ، البحيرة التي كانت تخفي
الأسرار بدأت تفتح أمامه أبواباً مغلقةً،
كان يعلمُ أنه يجبُ عليه أن يتعمقَ أكثر
في هذا اللغز لكنّه كان يشعرُ في الوقت
نفسه بأنّ العودة إلى الوراء لن تكون
سهلةً، بينما كان يونسُ يتأملُ في تلك
الصور التي رآها في ذهنه، كانت الرياح
تُحدثُ ضجيجاً غريباً، وكان الماء يلمعُ
في ضوء القمر كأنّه يحملُ إشاراتٍ من

ماضٍ غارقٍ، قال سالمٌ فجأةً وهو يلتفتُ
إلى يونس:

_"الذهبُ ليس ما تبحثُ عنه حقًا يا
يونس، ما تبحثُ عنه هو شيءٌ أكبر،
إنه سرُّ تماسين نفسها، سرُّ الحياة التي
تختبئُ بين الرمال." _

نظرَ يونسُ إلى سالمٍ بدهشةٍ وأجاب:

_"ولكنَّ ما رأيته في البحيرة، هل كان
حقيقيًّا؟ هل يعني ذلك أنني اقتربتُ من
اكتشاف السرِّ؟" _

قالَ سالمٌ وهو يشيرُ إلى البحيرة مرةً أخرى:

_"لن تكتشفَ السرَّ بسهولة لكنَّك الآن
في الطريق الصحيح، وتماسين نفسها
سترشدك عندما يحين الوقت." _

انطلقت الأقدام في ظلمة الليل حيث كان
يونس وسالم يقودان أنفسهما نحو
المجهول، إلى حيث تختبئ أسرار
تماسين بين الرمال، كانت المدينة في
تلك اللحظات أكثر من مجرد مكان
جغرافي، كانت حياة، نبضًا يتدفق في
قلب الصحراء، سرًا ينتظر أن يكشف.

الفصل

الحادي عشر:

في دروب أخرى "مغامرة جديدة"

بينما كان يونسُ يواصلُ اكتشافه لأسرار
تماسين، كانت هناك شخصيةٌ أخرى
تتحركُ في الظلام، ذلك الرجل الغريب
الذي وصل إلى تماسين من بعيدٍ يحملُ
معه أسرارًا أخرى، وأهدافًا أكثر غموضًا
أطلق عليه اسم "الظاهر" وكان يُعتبر
من القلائل الذين يعرفون أشياءً عن
تماسين لا يعلمها حتى أهلها، الظاهر
كان يعيش في حي سيدي عامر بالقرب
من أطلال المدينة القديمة حيث يقال إنّه
نشأ في ظروفٍ غامضةٍ، كان رجلاً هادئًا
لكنه حادُّ البصيرة يعرفُ أين يذهب دون
أن يترك أثراً وراءه، كان لديه العديد من
العلاقات السرية، وعلاقات غير واضحة
مع بعض الشخصيات المؤثرة في

تماسين مثل عائلة الـورفلي، كان يميلُ إلى العزلة لكنه لا يغيبُ عن الأحداث المهمة ويظهرُ دائماً في اللحظات الحاسمة.

في إحدى الليالي بينما كان يونسُ وسالمُ يواصلان الحديث حول البحيرة وأسرارها، كان الطاهر قد بدأ في التحرك يخططُ لما سيأتي بعد ذلك، كان يسيرُ في الأزقة الضيقة متجهًا نحو أحد الأماكن المهجورة في أطراف المدينة حيث توجد غرفة تحت الأرض تُعرف بـ "مخازن الظلال".

في "مخازن الظلال" كان الطاهر يلتقي مع شخصياتٍ غامضةٍ لم يرها أحدٌ من قبل، هذه الغرفة كانت تحت الأرض منذ

قرونٍ وتُعتبر مخبأً للأسرار التي لا يجب
على أي شخصٍ أن يعرفها، قال أحدهم
وهو يرفع عينيه ببطءٍ نحو الظاهر:

_"أنت هنا لتبحث عن شيءٍ أكبر من
الذهب، أليس كذلك؟"

أجاب الظاهر بهدوءٍ:

_"الذهب ليس إلا وسيلة، ما أبحث عنه
هو الحقيقة."

في تلك الغرفة القديمة حيث كان الضوء
يكاد يخترق الظلام، اكتشف الظاهر
العديد من الأدلة التي تقود إلى أسرار
تماسين التي كانت قد دُفنت عبر
العصور، كلما توغل في الأعماق، كلما
اكتشف المزيد عن ماضي المدينة
وأسرارها المظلمة التي يبدو أنها كانت

أكثر تعقيدًا مما كان يتوقع، بينما كان الظاهر يبحثُ بين الصفحات القديمة والخرائط التي عثر عليها، لفت انتباهه شيءٌ غريبٌ، كانت هناك خريطةٌ قديمةٌ محفوظةٌ بعنايةٍ تشير إلى مكانٍ لا يعرفه أحد، كان المكان مُحددًا في أحد المناطق النائية قرب بحر الرمال وكان يحملُ اسمًا غريبًا "قرية الظلال".

_"هل هذا المكان موجود حقًا؟" تساءل الظاهر وهو يدير الخريطة في يديه، أدرك أنه أمامه طريقٌ سيغير كل شيء.

قرر الظاهر المضي قدمًا نحو هذا المكان دون أن يخبر أحدًا، ركب حصانه وتوجه إلى حيث تلتقي الرمال بالسماء متتبعًا إشاراتٍ قديمةٍ كان يعرف أنها ستقوده

إلى سرٍ لم يُكشف بعد، في طريقه بدأ
الظاهر يرى آثارًا قديمةً لأشخاصٍ مروا
من هناك في الماضي وأحسَّ بشيءٍ
غريبٍ في الهواء، كانت الرياح تحملُ
معه همساتٍ خفيةً وكأنَّ الأرض نفسها
كانت تُخبره بأسرارها.

_"قرية الظلال، هل هي مكانٌ تركه
الناس لأنهم اكتشفوا ما كان مخفيًا؟"

تساءل الظاهر، ولكنه كان يشعرُ أن
الجواب في تلك القرية سيكشفُ عن كل
شيءٍ، عن تاريخٍ ضائعٍ، وعن ماضٍ
يرفضُ أن يُنسى.

بينما كان يواصل رحلته كان يونسُ قد
بدأ في الوصول إلى قناعةٍ جديدةٍ، رغم
أنه كان قد اكتشف جوانب مهمة من

الأسرار إلا أنه شعر أن هناك الكثير مما يفوته، بدأ يفكر في الظاهر وفي تلك الشخصيات الغامضة التي تترابط مصائرهم مع مصيره في هذه المدينة، هل كان الظاهر قد اكتشف ما كان يخفى على الجميع؟ هل كان سيقوده إلى أعماق أسرار تماسين؟

في تماسين حيث كانت الأيام تتداخل، كانت رحلة الظاهر في طريقها إلى كشف أسرار جديدة لكن في نفس الوقت كانت المدينة نفسها تنتظر أن يُكتشف سرّها الأخير الذي سيحدثُ تغييرًا جذريًا في حياة كل من سكنوها، قد تكون هناك عدة طرق للوصول إلى هذا السر لكن كل طريق يقود إلى مواجهاتٍ مع

الماضي، وموامراتٍ لا تنتهي، ومع
أقدارٍ لا مفرَّ منها.

نسمات الأدب

نشر الإلكتروني

الفصل

الثاني عشر:

في مسار مختلف "فاطمة وعودة

الروح"

في قلب مدينة تماسين وعلى مقربة من حي "المنار" حيث تلتقي الأزقة الضيقة بأشعة الشمس الذهبية، كانت فاطمة تسير بثقة في الشوارع القديمة، فاطمة لم تكن مجرد فتاة عادية؛ كانت عارفة بالأسرار، وأعظم ما يميزها هو قدرتها على قراءة الأحداث قبل وقوعها، وفهم التلميحات التي لا يدركها الآخرون، كان يقال عنها إنها ورثت هذا الموهبة من جدتها التي كانت تُلقب بـ "الملكة الصامته" المرأة التي عاشت في زمن بعيد، وكان لها تأثير قوي على مجريات الأمور في تماسين، أمضت فاطمة سنواتٍ طويلةً في تعلم الطب التقليدي وكان لها عيادة صغيرة في أحد زوايا

المدينة حيث تداوي المرضى وتساعد
من يحتاجون إلى رعايةٍ روحانيةٍ لكن
أكثر ما كان يثير اهتمامها ليس الطب
فقط بل أكثر بكثيرٍ من ذلك، كانت تفهم
كيف تتبض الأرض تحت قدميها، وكيف
أن الأسرار التي خبأتها المدينة في
قلوب سكانها تبدأ في الظهور حين
يقرب وقت الكشف.

في أحد الأيام بينما كانت فاطمة جالسة
في عيادتها، جاء إليها رجلٌ غريب،
طويل القامة، ذو ملامحٍ حادةٍ وعينين
يعكسان شدة الحزن، لم يتحدث الرجل
مباشرة بل اكتفى بالجلوس في الزاوية
منتظرًا أن تلتقط فاطمة من دون أن
تسأله شيئًا كما كان متوقعًا.

رفعت فاطمة رأسها عن كتبها وابتسمت
ابتسامةً غامضةً ثم قالت:

_"أنت تبحث عن شيءٍ لا تعرفه، وليس
كما تعتقد، ماذا يجذبك إلى تماسين؟"

تأمل الرجل في عينيها لحظةً ثم أجاب
بصوتٍ منخفضٍ:

_"أنا بحثت في كل مكان وسافرت بعيدًا
لكنني شعرت أنني يجب أن آتي إلى هنا
ثم وجدته أمام بابك."

_"وهل تعتقد أن هذا المكان سيمنحك
الجواب؟" قالت فاطمة وهي تقيسه
بنظرة عميقة.

_"لا أعرف لكن شعرت أنني مضطر لمجيئه."

أصغت فاطمة للحديث طويلاً ثم نهضت
ببطءٍ، وتوجهت نحو رفٍّ قديمٍ حيث
خزنت بين طياته مخطوطاتٍ قديمة،
أخذت إحدى الأوراق القديمة التي تحمل
علامةً قديمةً وقد بدأت تتآكل أطرافها
بسبب الزمن.

_"تعرف، كثيرون يأتون هنا بحثًا عن
إجابات لكن الإجابة لن تكون في
مخطوطاتٍ قديمةٍ بل في أنفسهم."

سكتت للحظة ثم أضافت:

_"في تماسين كل شيءٍ له قصة، وكل
زاويةٍ تحمل بين جدرانها أسرارًا لن
تُكشف إلا لمن يستحق."

الرجل كان ينظر إليها بدهشةٍ وقد شعر
بشيءٍ غريبٍ في حديثها:

_"ماذا تعنين؟ هل تعنين أن هناك سرًا في تماسين لا يمكن اكتشافه إلا إذا كانت لدينا مفاتيح القلوب؟"

أجابته بابتسامةٍ مليئةٍ بالغموض:

_"ربما لكن تماسين ليست مدينة عادية هي حياة تتحرك وتتَنفس، ولا يمكن للغريب أن يعرف أسرارها إلا إذا تركها تروي له قصتها."

ثم توجهت فاطمة إلى الباب، قائلةً:

_"تعال سأريك مكانًا، هناك حيث يلتقي الماضي بالحاضر."

رافقها الرجل إلى حي "البحور" وهو أحد الأحياء القديمة التي لا يذهب إليها إلا القليل من الناس، قالت فاطمة وهي تشير إلى أحد البيوت القديمة:

_" هنا حيث يلتقي البحر بالرمال، كانت هناك دائماً حكاياتٌ عن الماء الذي يحمل الأرواح."

توجهوا نحو البحيرة التي كان يونس قد اكتشف سرها لكن فاطمة كانت تنظر إلى المياه بتركيزٍ مختلفٍ.

_" أنت تبحث عن سر الذهب المفقود، أليس كذلك؟" سألته فاطمة.

_" نعم لكنني لا أعتقد أن الأمر يتوقف هنا، تماسين تخفي شيئاً أكبر."

فاطمة ابتسمت وقالت:

_" أنت على صواب لكن عليك أن تفهم شيئاً مهمّاً: السر الذي تبحث عنه ليس الذهب بل الحقيقة التي خلفه، تذكر الماء لا ينسى ويعود كل شيءٍ إلى حيث بدأ."

بينما كانت المياه تتلأأ في ضوء القمر
بدأت فاطمة تكشف عن جزءٍ من ماضي
تماسين.

_"هناك في قلب الصحراء حيث تخفي
الرمال أسرارها، كان هناك من عاشوا
هنا قبلنا، وكان لديهم علمٌ بأشياءٍ لا
نفهمها الآن، قد تكون هناك قوةٌ تحت
سطح الأرض، قوةٌ قد تكون هي سرُّ
تماسين الحقيقي."

في تلك اللحظة شعر الرجل بشيءٍ
غريبٍ في الهواء وكان كلمات فاطمة قد
أضاعت جانباً خفياً من ذهنه.

_"هل تعتقدان أنني قريبٌ من كشف السر؟"

_"كل واحدٍ منا لديه دوره في هذه
المدينة" قالت فاطمة: "إنها تتحدث إلينا

لكننا لا نسمعها دائماً، تماسين تحتاج
إلى أن تفتح قلوبنا لتخبرنا بما لم نكن
نعرفه."

النهاية

وفي النهاية أينما سرنا في دروب الزمن
تظل تماسين كما هي نبضًا في القلب،
وجفناً في السماء، ماضٍ وحاضر
يتداخلان كخيطةٍ من نور، بينما ترسم لنا
الأيام صورة عشقٍ لا يغيب.

يا تماسين، يا من تحتفظين بأسرار
الأرض، يا من كل زاوية فيها تروي
حكاية، تركناك في القلب أينما سافرنا،
أينما تفرقت الدروب، فأنتِ وطنٌ لا
ينسى، وأملٌ لا يخبو، قد رحلنا عنك
لكنك لن ترحلين، ستظلين في الذاكرة،
وفي كل حلمٍ يمرُّ بين الليل والنهار،
وأنتِ وحدك، تماسين، ستبقين الخيط
الرفيع الذي يربط الماضي بالحاضر،

تذكريننا دوماً أننا من الأرض التي لا
تذبل، ولا تموت، وفي قلب كل فردٍ مرّاً
بحكايتك، ستظل تماسين حيةً شاهدةً
على زمنٍ رحل لكنّ الأساطير التي
تركناها فينا لن تموت، فأنتِ يا تماسين
البداية والنهاية.

الخاتمة

وفي الختام أبعث كلماتٍ من القلب
للغوالي، شكرًا لكم على الحبِّ والدعم
في كلِّ الأحوال، فأنتم النور في دروبي،
والفرح في كلِّ يومٍ، في زمنٍ صعب كنتم
الأمم، وكنتم السلوى لقلبي المتألم،
فلتظلَّ محبتنا معًا وتظلَّ الروح في أمان،
اللهم اجعل أيامنا فرحًا، والسعادة لنا في
كل زمان، تحياتي من سجية الى قلوبكم
الطيبة.
